

البعد التربوي والإصلاحي في خطاب محمد البشير الإبراهيمي

The educational and reform dimension in the speech of Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

مبرك حسين

جامعة محمد بوضياف المسيلة ، الجزائر

hocine.mebrak@univ-msila.dz

عواج حليلة*

جامعة الحاج لخضر باتنة 1، الجزائر

aouadjhalima@gmail.com

ملخص:	معلومات المقال
<p>يُعدُّ البشيرُ الإبراهيمي بحقَّ رائدا من رواد النهضة الحديثة، وعلما من أعلامها المبرزين، فهو العالم الربّاني الجليل الذي لم يدخر جهدا في تسخير علمه لخدمة الأمة، والعمل على انتشالها من براثن الجهل وإنقاذها من مستنقع التخلف والعبودية والهوان، رغم تجمهم الأيام، ومكاره الظروف ومصاعب الزمان. وقد تجلّى ذلك من خلال تبنيه لمشروع نهضوي، يقوم على الإصلاح والتوعية، لتحقيق الأثر والنوعية، وغرس مبادئ التربية الصحيحة، في ضوء منهجية راسخة قوية، مبنية على رؤية نقدية بناءة تشخص العلل والمفاسد، وتعالج الخلل لتحقيق المقاصد.</p>	<p>تاريخ الارسال: 2021/09/14</p> <p>تاريخ القبول: 2021/10/10</p>
	<p>الكلمات المفتاحية:</p> <ul style="list-style-type: none"> ✓ النهضة ✓ التربية ✓ الإصلاح ✓ العلم ✓ التحرير والتغيير
Abstract :	Article info
<p><i>Al-Bashir Al-Ibrahimi is rightfully considered a pioneer of the modern renaissance, and one of its distinguished leaders, as he is the glorious divine scientist who has spared no effort in harnessing his knowledge and his dream to serve the nation, and work to pull it out of the clutches of ignorance and save it from the swamp of backwardness, slavery and humiliation, despite the grim days of days. And the misfortunes of circumstances and the difficulties of time. This was evidenced by the adoption of a renaissance project based on reform and awareness, to achieve impact and quality, and to instill the principles of correct education, in light of a solid, solid methodology, based on</i></p>	<p>Received 14/09/2021</p> <p>Accepted 10/10/2021</p>
	<p>Keywords:</p> <ul style="list-style-type: none"> ✓ Renaissance ✓ Education ✓ Reform ✓ Science ✓ Liberation and change

a constructive critical vision that identifies ills and evils, addresses imbalances, establishes faults and cures ills.

1. مقدمة :

من خصائص الكتابة عند "محمد البشير الإبراهيمي" أنه يُعنى بأساليب البلاغة العربية، في ديباجتها ونصاعتها، فمن ألفاظ منتقاة، وجودة في الأسلوب، إلى سُمُو في الفكرة، وجمال في الصياغة، وكأني به يتمثلُ جوهر الأدب الذي يجمع بين الجمال والإمتاع، وجلال الفكرة وسُمُوها، إنه امتدادٌ لمدرسة الصنعة التي تحتفي برصانة الأسلوب ومتانته، وجزالة اللغة وفخامتها وحُسن السبك وقُوَّة النظم، وروعة البيان، وجودة التعبير، وغيرها من الخصائص التي طبعت أدب الإبراهيمي، وبوأنه مكانة عليَّة بين أدباء وكُتَّاب وخطباء عصره وسنحاول من خلال هذا المقال تتبع بعض السمات والخصائص التي انطبع بها أدبه، وتميز بها في مجال الكتابة، ولاسيما في بعدها التربوي والإصلاحي، ذلك أن الرجل كان يدرك ويعي أن أي تغيير للفرد، وبناء للمجتمع، وتحقيق للنهضة والتقدم فيه، ينبغي أن ينطلق من بناء الإنسان في ذاته، وتغيير سلوكه وأفكاره وذهنيته ومفاهيمه، من خلال طبعه على قيم تربوية وأخلاقية نابعة من صميم المجتمع، قادرة على تغيير الفرد، وتفعيل المجتمع، وتأسيس القيم والمبادئ الإيجابية بداخله، لتصبح ثقافة راسخة، ووعيا متجزرا، وطاقات فعالة، تسهم في تحريره من رواسب الجهل والتقليد والتخلف، باعتبار أن التربية الصحيحة والفعالة، هي التربية التي تستوعب كل المنظومات، وتنجح في صنع وعي متكامل متوازن على مستوى الفرد والمجتمع .

2. علمه وخبرته:

كان الرجل خبيرا بمناهج التغيير، وطرائق الإصلاح، وأساليب البناء، واسع النظر، نافذ الرؤية، موسوعي الفكر، يعتبر أن التربية الفعالة، هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة، وقد عزز هذه المعرفة بامتلاكه ناصية اللغة العربية، والإحاطة بأساليب الكلام، وطرائق التعبير، وفنون البلاغة، وأدوات البيان " يأتيه السَّجْعُ فيحسُنُ مأتاهُ ، وينصرفُ عنه فيحلُّو مُنصرَفُهُ"¹ وقد صال البشير الإبراهيمي وجال في النوادي المختلفة، والمهرجانات والمحافل الأدبية والعلمية التي طاف بها أثناء رحلاته إلى بلدان عربية وإسلامية طالبا العلم، مستزيدا من البحث والتَّحصيل مُعرِّفاً بالقضية الجزائرية، وإسماع صوت الثورة التحريرية في الخارج وكانت تلك المناسباتُ مجمعا للعلماء والأدباء والمثقفين، ومجالا لتكريم فحول الشعراء والأدباء، وملتقى لتكريم العلماء، ففي كلمة ألقاها بمناسبة مهرجان "شوقي" بالقاهرة أقيم عام ثمان وخمسين تسعمائة وألف، يقول فيها: "..حيَّاكم اللهُ وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تُحيون مآثرها وتُجدِّدون مفاخرها وللعربية تُوفون بعهودها، وتقومون بحقوقها.."²، وفي موضع حديثه عن اللغة العربية، نراه يتفنَّن في توليد الألفاظ، وتشقيق الكلام، وتدبيج العبارات بصورة ماهرة مذهشة، تنم عن براعته في اللغة والأدب وتنبىء عن قدرته في التقاط الشوارد والأوابد في العربية، حيث يقول: "أيها الإخوة الكرامُ، كلَّفني الأستاذ الرئيس أن أحاضر هذا الجمع العربي الحاشد، بكلمات في ناحية زاخرة من نواحي لغته الجليلة، وجانب عامر من جوانبها الفسيحة، وهو فضلها على العلم والمدنية وأثرها في الأمم غير العربية، إشادة بفضل هذه اللغة الشريفة في هذا الاحتفال العلمي، ووفاء ببعض حقها علينا وحفزا لهممكم، وأنتم أبنائها البررة... وإعلانا للمعنى الذي قامت جمعياً العلماء بتحقيقه وهو إحياء هذه اللغة وإحياء الدين الذي ترجمت محاسنهُ، واضطلعت بحمل أسرارهِ...أيها الإخوة، انشقت اللغة العربية من أصلها السامي في عصور متوغلة في القدم، وجرت في ألسنة هذه الأمة التي اجتمعت معها في مناصب المجد وأرومات الفخر، وشاء الله أن يكون ظُهورُها في تلك الجزيرة الجامعة، بين صحو الجؤ وصفو الدرِّ، والمحبوة بجمال الطبيعة، ومحاسن الفطرة، لتتفتق عُمَارُ تلك الجزيرة عن روائع الحكمة، مَجْلُوة في معرض البيان بهذا اللسان، وقد كانت تلك اللغة تُرجمانا صادقا للكثير من الحضارات المتعاقبة التي شاهدها العربُ بجزييرتهم.."³.

إنَّ "البشير الإبراهيمي" أديب لَسُنُّ قوُولُ، دانت له الفصاحة، وانقادت له البلاغة، وفارسٌ من فرسان العربية اجتمع فيه من الحسنات ما تفرَّق في غيره، فكان -بحق- عصرا وجيلا، بل أُمَّة، وفي هذا السِّياق، ذهب "أحمد بن زياب" إلى القول: "...وإنِّي لم أرفي تونس، ولا أعرف في الجزائر، ولم أسمع في خطباء وأدباء وعلماء الأقطار العربية الشَّرقية، الذين ينقلُ إلينا الأثيرُ أصواتهم، مَنْ استقامت له طرائقُ التَّعبير، وانقادت له أزمَةُ البلاغة، وواتته في اللِّسن الطَّلَاقَة والدَّلَاقَة واللِّباقَة والارتجاليات، مثل ما أُوتي الإبراهيمي من كلِّ ذلك.."⁴.

وكان "البشير الإبراهيمي" محلَّ إكبار وإعجاب من قبل مشايخ وعلماء عصره في الحجاز والشَّام ومصر والعراق، وها هو الأستاذ "عاصم البيطار" يقولُ عنه: "...كان الإبراهيمي رحمه الله إذا تحدَّث اعتدل، وتوهَّجت عيناه، وانشرح صدره، وانطلق لسانه يتدفقُ بالدُرُر من محفوظه قرآنا وحديثا، شعرا ونثرا، مُرتجلا الخطبة بالسَّاعات فلا يُصيبُهُ التَّعب، ولا ينحرفُ عن الموضوع مهما تشعبت به أطرافه يستطرِدُ ما يشاء، ثمَّ يعودُ إلى حيثُ توقَّف، وكأنَّه يقرأ في كتاب، كان قويَّ الذاكرة يحرص على أن يكونَ علمُه حاضرا إن غابت الكتب.."⁵.

3. منهجه في التغيير والإصلاح :

البشير الإبراهيمي عالم فذ، وأديب أريب، ومصالح مربِّ ألمعي، أفنى حياته في تأليف الرجال وإعداد الأجيال، وصياغة العقول والنفوس، حيث انبرى للدعوة والإصلاح والتربية، من خلال تعبئة الطاقات وشحن العزائم والهمم، وهو عمل شاق ليس أهون من تأليف الكتب وتصنيف المراجع وتدبيح المقالات، بل هو عبء ثقيل لا ينهض به إلا أولو العزم من العلماء الربانيين العاملين والمجاهدين وها هو يعلن أن صعوبة الظرف وخطورة الوضع مع الجهود التي تآكل الأعمار أكلا كل ذلك لم يفت في عضده، ولم يثن عزمه عن السعي لاستنهاض الهمم وشحن العزائم، والعمل على تحرير النفوس والألباب وتبديد الأوهام والسراب، والتصدي لمشاريع الهدم والخراب، يقول: "لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تآكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلَّى بأنني ألفتُ للشَّعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده وصحَّحتُ له دينه ولغته، فأصبح عربيا مسلما، وصحَّحتُ له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أبيًا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرِّبِّ ورضى الشَّعب"⁶ وظلَّ الإبراهيمي متصلا بعصره متفاعلا مع أحداثه، مندمجا في ماضيه، قارنا لحاضره بصيرا به مستشرفا لمستقبله، إذ ليس أخطر على الأمة من اغتراب أجيالها وانفصالها عن أسلافهم، وقطيعتهم مع ماضيهم وتاريخهم، فتضييع الوديعة وتحدث القطيعة، وتُدكُّ الحصون المنيعَة، يقول: "وأفكَّرُ في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدِّين قشورا بلا لباب وألفاظا بلا معان ثم عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل وإلى زواجه فأزهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنحل والشيع"⁷، فالإبراهيمي يدرك إدراك العالم الفطن البصير أن أمور الدِّين والدنيا لا تؤخذ بالتَّهريج واللَّغَط، والانهار بالشكلييات والمظاهر، والانخداع بها ولكنَّ الحياة الحَقَّة تقومُ على فهم الدِّين على وجهه الصَّحيح، والالتزام بمبادئه وقيمه السَّامية السَّمحاء التي تُحرِّر الإنسان من الضُّلال والتهيه والانحراف، وتجنبه شرور الفرقة والاختلاف والتَّهريج، التي تُورثُ الضعف وتجلب الهزيمة والتلاشي، وقد كرس الإبراهيمي في خطابه مبدأ الوسطية والاعتدال، هذا المبدأ الذي ينبغي أن يحكم حياة الإنسان، ويضبط تفكيره وسلوكه وضروب معاملاته وعلاقاته، وخطابه هو مشروعٌ مجتمع واضح المعالم، بيِّن المنهج يبني على الوحدة والتماسك، والرؤية الشاملة للحياة ومقتضياتها، والعصر ومتطلباته والاهتمام بالقضايا الكبرى والمصيرية التي هي مناط العزِّ والشرف والسَّيادة والحرية والاستقلال.

4. الوعي وصناعة التوازن:

خطابُ العقل الواعي المُفكِّر، والإدراك الصحيح والفهم السليم، والوعي بأسباب التغيير والإصلاح والنهوض، وتجاوز المحن والمصاعب والأباطيل، التي من شأنها إضعاف الأمة وإسقاطها في الهاوية، يقول: "لو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام

وأشربوا في قلوبهم معانيه السَّامية ومثله العليا وأتخذوا من كتابه ميزانا، ومن لسانه العربي ترجمانا واتَّجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقيّة من أوضار المصطلحات وعقول صافية لم تعلق بها أكوادُ الفلسفات لسعدوا به كما أراد الله، ولأسعدوا به البشر كما أمر الله، ولأصبح كل مسلم بالخير والصلاح سفيراً، وكان المسلمون في أرض الله أعز نفراً وأكثر نفيراً⁸. ولعلَّ وعي المسلم برسالته، ونهوضه بتبعاتها، وتمثله لمقتضياتها، وأخذها بأسباب السَّبْق وعوامل التَّفوق والغلبة والنَّجاح هي التي من شأنها أن تهيئ له السبل والمناهج القويمة، التي تتيح له مباشرة دوره، وأداء بواجباته؛ وتجاوز كل العقبات والعراقيل والمصاعب التي تحول دون نهضته. يقول: "إنَّ العالم في اضطراب، لأنَّ أهله في اضطراب، وقد جرَّب المناهج والأدوية وتداوى بكل ما يخطر على البال وتداوى بالمال وسحره، فلم يشف من مسّه، واسترقي بجميع الرقي، فلم يبرأ من لمحّه؛ وعالجه بالدَّواء الأحمر فكان الدَّاء الأصفر؛ ويمينا برّه لا حنث فيه ولا تأول، لو أنَّ الإسلام فُهم على حقيقة وطُبِّق على وجهه الذي جاء به من عند الله محمد بن عبد الله، لكان هو الدَّواء النَّافع الذي يحل العقد ويرفع الإشكال، وكان هو الحكم في معترك الخلاف، والجالب بقوانينه وأخلاقه لسعادة العالم"⁹، وهاهو يدعو المسلمين إلى القوة الجامعة: الموحَّدة التي تجعلهم في موقع السيادة والرَّيادة والرَّيادة والقيادة، وهي رابطة الإسلام الوثقي التي تلو على المصالح الضيِّقة، والنزعات الحزبية والقوميات والعرقيات التي تهلك، وتغرق وتجلب الهزائم، وتثبط العزائم، يقول: "دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لاتضيق بنزيل، وهي جامعة الإسلام، إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخيل، وهي روحانية الشَّرْق وحدِّرتناهم من هذه الأفاحيص الضيقة، والوطنيات المحدودة التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم، وبيناً لهم أنها دسيسة استعمارية زينها لهم سماسرة الغرب وعلماؤه وأدلاؤه، وغايتهم منها التَّفريق، ثم التَّمزيق، ثم القضم، ثم الهضم...."¹⁰

ويرى الإبراهيمي أن خلاص البشرية وسعادة الإنسانية تكمن في التزام نواهي الدين وتعاليمه وأوامره، والتقيد بشرعته، وترسم منهجه، لأنَّ الإسلام دعوة عالمية، يجاري العقل السليم، والتفكير القويم، والفضيلة النقيّة، يقول "وإنَّ التَّاريخ شهد هذا الدين في عنفوان شبابه، وتهميؤ أسبابه و ازدخار عبايه، فشهد له بالفضل الأتمّ، والخير الأعمّ للبشر كلهم...، وشهد أن سلف هذه الأمة مالمسوا حاسي السَّعادة إلا به، وما كانوا أساتذة الكون إلا بهديه.. وإنَّ التَّاريخ لم يعرف ديناً من الأديان لم يسبق على أساس الجنسية، ولم يرجع على قواعدها إلا دين الإسلام فهو لا يخص بجنس، وهو صالح لكلِّ جنس، وهو موافق لكلِّ نظرة، وهو ملائم لكلِّ نفس"¹¹، وأمّا أركانه فلا ترفع، إلا إذا اجتمعت قُوى الخير وقيم النِّفع والصلاح والجمال، ومبادئ العدل والفضيلة، يقول: "والأممُ إنّما تتفاضل وتتعالى بالبناء للخير والمنفعة والجمال والقوة، وماعدا هذه الأربعة فهو فضولٌ عابثٌ لا يدخل في قصد العقلاء، وقد بنى أسلافنا لكلِّ أولئك مجتمعة ومتفرّقة، بنوا المساجد مظهراً للخير، وشادوا المدارس مظهراً للمنفعة، وأعلوا الحصون مظهراً للقوّة، وسمكوا القُصُور مظهراً للجمال، فضموا أطراف الفخر، وجمعوا حواشي المجد، وحازوا آفاق الكمال، وقادوا الحياة بزمام وأنشأوا بذلك كلّه للحضارة الإنسانية الشَّاملة نموذجاً من المدينة الفاضلة التي تخيلها حكماء اليونان ولم يحقّقها ساسة يونان، وإنّما حقّقها من ساد بالعدل، وقاد بالعقل أولئك أبائي"¹²، كما أنّ سم خطابّه بالإيجابية، فلم يكن ليكتفي بوصف الاختلالات ورصدها، وتعداد السلبيات والعيوب، ولكنّه يمارس النِّقد الذي يشرّح الواقع والأحداث ويحلّل القضايا ويحاكم التَّجارب، ويُقدِّم الحلول والبدائل التي من شأنها تذليل المصاعب والمُعوقات والمكاره التي تحول دون التَّطور والرقي، ومن ثمَّ الأخذ بأسباب البناء والإصلاح بعيداً عن النِّقد الهدام والارتهان للعاطفة والحماسة، وتبني الأحكام الجاهزة واستيراد القوالب، والأنماط والنظريات المطروحة.

5. سبل التغيير والتجديد:

إنّه خطابٌ مُترن متوازنٌ يبنّي على فقه الواقع، والوعي بأسباب التَّغيير والإحياء والبعث، والخبرة بعوامل التَّجديد شأنه شأن كلِّ عالم عارف بأساليب بناء النهضات وتشديد الحضارات، حيثُ لأمجال للتقليد والتبعية والارتجال والتهور والاندفاع والرعونة والتخاذل والغشّ والجبن، وما إلى ذلك من مذاهب الهدم التي لا تصنع قدوة ولا تبني قوة، ولا تغرس

قيمة، فلا مجال عنده لإرسال الكلام على عواهنه، وتكلف العبارة وتصنع اللغة والتعبير، ولكنه مُشَرَّعٌ ومُخَطَّطٌ، يُحَسِّنُ التَّفَكِيرَ، وَيُجِيدُ التَّدْبِيرَ وَيُمَارِسُ التَّنْوِيرَ وَالتَّحْرِيرَ يَسْتَلْهُمُ الْمَاضِي، وَيَتَمَعَّقُ الْحَاضِرَ وَيَسْتَشْرِفُ الْمُسْتَقْبَلَ بَعِيدًا عَنْ تَرْدِيدِ الشُّعَارَاتِ، وَالتَّلْوِيحِ بِالْبَيَانَاتِ، وَالتَّغْيِيِ بِالتَّصْرِيحَاتِ، يَقُولُ: " .. وَيَكُونُ سَبَبُ الْغَفْلَةِ عَنِ الْحَقِيقَةِ هُوَ الْحَقِيقَةُ نَفْسُهَا، وَمِنْهَا افْتِتَانُ هَذَا الْجِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بِكَلِمَاتِ: الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْعَرَبِ وَالْعُرُوبَةِ وَالْوَطَنِ وَالْوَطَنِيَّةِ، وَهِيَ كَلِمَاتٌ تُشْعِرُ إِشْعَاعَاتٍ تَخْطِفُ الْبَصَرَ، وَتَفِيضُ عَلَى النَّفْسِ أَصْبَاغًا ذَاتَ أَثَرٍ، وَهِيَ عَلَى عَمُومِهَا سَمَاتٌ هَذَا الْعَصْرِ الْمُتَحَلِّلُ، وَمَوَادُّ الْفَصْلِ الْأَوَّلُ مِنْ قَامُوسِهِ يَسْتَعْمَلُهَا الْأَقْوِيَاءُ تَعَالِيًا وَاجْتِهَادًا، وَيَسْتَعْمَلُهَا الضَّعَفَاءُ تَعَلُّلًا وَتَقْلِيدًا، وَلَمَّا كَانَتْ مَعَانِيهَا عِنْدَ الْأَوَّلِينَ مَادِّيَّةً جَافَّةً مُتَقَطَّعَةً الصَّلَةَ بِالرُّوحِ، فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَنْقَلِبَهَا الْمُقْلِدُونَ بِجَفَافِهَا وَانْقِطَاعِهَا عَنِ الرُّوحِ"¹³.

وقد تَفَطَّنَ الْإِبْرَاهِيمِيُّ، فَأَدْرَكَ أَنَّ الْأُمَّمَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْيَا وَتَعِيشَ، وَتَنْهَضَ وَتَرْقِيَ بِلُوكِ الْمِصْطَلِحَاتِ، وَاجْتِرَارِ الْقَوَالِبِ وَالصَّبِغِ الْجَاهِزَةِ، وَالتَّغْيِيِ بِالشُّعَارَاتِ وَاسْتِيرَادِ النَّظَرِيَّاتِ، وَالِاسْتِكْتِنَارِ مِنَ الْجَدَلِ الْعَقِيمِ، وَالْمِهَاتِرَاتِ وَالتَّرَهَاتِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ نَهْضَتُهَا بِتَغْيِيرِ الْمَفَاهِيمِ وَالذَّهْنِيَّاتِ، لِتَعْبِيدِ الْمَسَالِكِ وَبِنَاءِ الْمَمَالِكِ وَتَجَنُّبِ الْمِهَالِكِ وَتَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَتَرْجُمَتِهِ إِلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ فِي صُورَةٍ تَخْطِيطٍ لِتَجَنُّبِ التَّغْلِيظِ، لِتَظْهَرِ أَثَارُهُ فِي عَمَلٍ مَتَقِنٍ وَإِنْجَازٍ مُقَنَّ يَقُولُ: "تَرَدَّدُ عَلَى أَقْلَامِ الْكُتَّابِ الْعَرَبِ وَعَلَى أَلْسِنَةِ خُطْبَائِهِمْ مِنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ كَلِمَاتٌ: الْوَعْيِ، الْيَقِظَةِ النَّهْضَةِ مَنْسُوبَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ أَوْ مِضَافَةِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَهَلْ هَذِهِ الْأَقْلَامُ وَ الْأَلْسِنَةُ مَهَابَةٌ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ تَصِفُ حَقِيقَةَ أَمِّ تَصُورِ خِيَالًا فَإِنَّ الصِّفَاتِ، لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِظُهُورِ أَثَارِهَا فِي الْخَارِجِ، وَشَهَادَةِ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا يَمَارِي فِيهِ لَهَا، وَالْوَعْيِ الْحَقِيقِيِّ يَصْحَبُهُ رَعْيٌ؛ وَيَعْقِبُهُ سَعْيٌ، وَ الْيَقِظَةُ الْحَقِيقِيَّةُ يَصْحَبُهَا عِلْمٌ لَا هَوِينَا فِيهِ وَيَتْبَعُهَا عَمَلٌ لَا تَرَدُّدَ فِيهِ"¹⁴. إِنْ الْفِكْرَةُ لَا قِيَمَةَ لَهَا فِي ذَاتِهَا، إِلَّا إِذَا انْعَكَسَ أَثَرُهَا عَلَى الْوَاقِعِ، فَصَارَتْ قِيَمَةٌ نَافِعَةٌ، أَوْ قُوَّةٌ دَافِعَةٌ أَوْ طَاقَةٌ رَافِعَةٌ، إِلَى جَانِبِ رِبْطِ الْعِلْمِ بِالْعَمَلِ فَالْعِلْمُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى مَعَارِفَ نَظَرِيَّةً وَثَقَافَةً لِسَانِيَّةً، لَكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَتَرَجَّمُ إِلَى عَمَلٍ مَنْتَجٍ وَأَدَاةٍ فَعَّالَةٍ تُؤَلِّدُ الْهَمَمَ، وَتَغْرِسُ الْقِيَمَ، وَتَشْحَذُ الْعَزَائِمَ، يَقُولُ: "يَا أَبْنَاءَنَا: إِنَّ الْحَيَاةَ قِسْمَانِ: حَيَاةٌ عِلْمِيَّةٌ وَحَيَاةٌ عَمَلِيَّةٌ، وَإِنَّ الثَّانِيَّةَ مِنْهُمَا تَنْبِئُ عَنِ الْأُولَى قُوَّةً وَضَعْفًا، إِنتَاجًا وَعَقْمًا، وَإِنِّكُمْ لَا تَكُونُونَ أَقْوِيَاءَ فِي الْعَمَلِ إِلَّا إِذَا كُنْتُمْ أَقْوِيَاءَ فِي الْعِلْمِ.. وَلَعَلَّ هَذَا الْوَعْيِ بِصُعُوبَةِ وَخَطُورَةِ مَسَلِكِ التَّغْيِيرِ، وَمَا يَحِيطُ بِهِ مِنْ مَتَاعِبٍ وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ جِهَادٍ وَتَضَحِيَّاتٍ جِسَامٍ، وَجُهُودٍ عَظِيمَةٍ وَمِضَاءٍ الْعَزِيمَةِ، هُوَ الَّذِي أَلْهَمَهُ الْوَعْيِ بِثِقَلِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُلَقَّاةِ عَلَى كَوَاهِلِ الرِّجَالِ لِتَرْبِيَةِ الْأَجْيَالِ وَتَهْيِئَتِهِمْ لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ وَأَدَاءِ الرِّسَالَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى تَجَشُّمِ الصَّعَابِ. يَقُولُ: "يَا أَبْنَاءَنَا: إِنِّكُمْ مَنَاطُ أَمَالِنَا وَمَسْتَوْدَعُ أَمَانِنَا، نُعَدِّكُمْ لِحَمْلِ الْأَمَانَةِ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ وَلَاسْتَحْقَاقِ الْإِرْثِ، وَهُوَ ذُو تَبْعَاتٍ وَنَنْتَظِرُ مِنْكُمْ مَا يَنْتَظِرُهُ الْمَدْلُجُ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ مِنْ تَبَاشِيرِ الصَّبْحِ"¹⁵، وَلَمْ يَكُنِ الْإِبْرَاهِيمِيُّ مِمَّنْ يَخُوضُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ دُونَ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مَنِيرٍ، وَلَكِنَّهُ عَارِضٌ بِأَصُولِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ، فَهَمَّا وَتَفْسِيرًا، حَاضِرِ الْحِجَّةِ وَالبَدِيَّةِ، قَوِي الْحَافِظَةِ مَدْرِكًا لِعُلُومِ عَصْرِهِ، خَبِيرًا بِتَجَارِبِ الْحَيَاةِ وَقَضَايَا الْعَصْرِ، مُلَمًّا بِأَحْدَاثِهِ، لَهُ دَرَايَةٌ بِمَنَاهِجِ الدَّعْوَةِ، وَأَسَالِيْبِ الْإِصْلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ يَقُولُ " وَمَا زَادَ الْمُسْلِمِينَ ضَلَالًا عَنِ الْمَهْدِيَّةِ وَعِمَايَةِ عِنْمَا إِلَّا فَرِيقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَوْضِعِ الْقُدُورَةِ وَالتَّعْلِيمِ .. فَيَخُوضُونَ فِي الرُّوحِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجَنَّةِ، وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيَتَوَسَّعُونَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى لِيَكَادُونَ يَضَعُونَ لَهَا خَرَائِطَ مَجْسَمَةٍ، وَسَبِيلُ الْمُؤْمِنِ الْقُرْآنِيُّ الْعَاقِلُ فِي هَذِهِ الْغَيْبِيَّاتِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهَا كَمَا وَرَدَتْ، وَأَنَّهُ يَكُلُّ عِلْمَ حَقِيقَتِهَا إِلَى اللَّهِ لِيَتَفَرَّغَ لِعَالَمِ الشَّهَادَةِ الَّذِي هُوَ عَالَمُ التَّكْلِيفِ"¹⁶.

وَمِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي اسْتَرَعَتْ اهْتِمَامَهُ، وَظَلَّ يُوَكِّدُ عَلَى أَوْلَوِيَّتِهَا وَمَرْكَزِيَّتِهَا فِي الْوُجُودَانِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ قِضِيَّةُ فِلَسْطِينَ السَّلْبِيَّةِ وَدَعْوَتُهُ إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْقِضِيَّةِ وَالدَّفَاعِ عَنْهَا، وَالِاعْتِقَادِ بَعْدَالْتَهَا، وَتَحْمِلِ الْمَسْئُولِيَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ تَجَاهِهَا وَهِيَ هِيَ يُدْغِرُ الْأَجْيَالُ بِأَنَّ فِلَسْطِينَ لَا تَسْتَعَادُ بِالْفُرْقَةِ وَالْخِلَافِ وَالتَّنْذِيدِ وَ الشَّجْبِ وَلَكِنَّهَا تَسْتَرْجِعُ بِالْوَحْدَةِ وَالْعَمَلِ الْجَادِّ، يَقُولُ: " وَإِنَّ اسْتِرْجَاعَ فِلَسْطِينَ مُمَكِّنٌ وَمَيَسُورٌ بِالْبَدَلِ وَالِاتِّحَادِ وَالتَّعَفُّفِ عَنِ الْمَطَامِعِ، فَإِذَا ظَاهَرَ الرَّأْيُ الرَّأْيُ فِي الْمَعْقُولِ، وَشَارَكَتِ الْيَدُ الْيَدَ فِي الْبَدَلِ، وَطَهَرَ الْمَجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ وَ الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ مِنَ الْمُخْذَلِينَ وَالْمَعْدَلِينَ، وَمِنَ الَّذِينَ يَتَنَاوَلُونَ

الأمر الكبير بالعقول الصغيرة، ويعارضون تشييد الحصون بتزويق المساجد، فإذا وقع هذا فأبشروا باسترجاع فلسطين ومحو العار، وإلا فإن فلسطين ضاعت ضياع الأبد بقدمها وأقصاها"¹⁷،

6. نقد الذات وإعطاء القدوة:

لم يكن الإبراهيمي في خطابه الإصلاحي ليجامل غيره من الكتاب والأدباء إذا رأى اعوجاجا في منهجهم، أو انحرافا في فكرهم، أو تضليلا وتغليطا في آرائهم ومواقفهم وها هو يعلن عن موقفه من المارقين الذين حادوا عن الصواب، وظنوا أنهم يحسنون صنعا، وهم في الحقيقة يد المستعمر التي بها يببطش وعينه التي ترصد، ذلك أنه سخرهم لتنفيذ مخططاته ومشاريعه، وتمير دسائسه وتفكيك نسيج المجتمع الجزائري وجعله لقمة سائغة للمستعمر، وفريسة للجهل والتخلف، وهؤلاء هم رجال الزوايا الذين عقدوا مؤتمرا بهدف مناهضة الحركة الإصلاحية، وتعطيل مشروعها النهضوي يقول: "أليس هؤلاء المؤتمرون من الأمة؟ أليسوا أئمة الأئمة؟ وهذه المجلة التي قرروا إصدارها. وما نراها تكون إلا لسان حالهم؟ فماذا ينشرون فيها؟ أتكون رسمية تنشر أوامر التولية والعزل؟ إن الأمر ليس بأيديهم، وقد كفتهم الكافية أم تكون رسمية بمعنى آخر؟ فتنشر الفتاوى الشرعية التي تعمر أوقات المفتين ليعم النفع بها والخطب الجمعية التي يلقيها خطبائهم ليقرأها من لم يسمعها؟ أم تنشر شروط الإمامة العصرية، ومنها الاعتماد في التزكية على (الدوسي).." ¹⁸، وبمثل هذه النبوة المفعمة بالغضب والاستياء والسخرية، يكشف البشير الإبراهيمي ممارساتهم المشينة وأباطيلهم التي تُبرّر عسف المستعمر وظلمه وتوسّع طروحاته، وتزكي مشاريعه الهدامة للوطن والدين واللّسان فيفضح مثالهم وما يضمرونه ويتسترون عليه من أفكار مغرضة، بأسلوب فيه غير قليل من التعريض والتشهير بأساليبهم الخسيسة، وينحى باللائمة على أتباعهم من الغافلين والمغفلين والمغرّرين، والسذج الذين جاروهم في أكاذيبهم وخداعهم، فنراه يستخف بعقولهم ويُسفّه أحلامهم، إذ يقول: "وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلّي العربية والإسلام ويسجنهم على التّعليم، كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجماع في محكمة واحدة وسجن واحد وظرف واحد وقد يكون يوم الجمعة في الغالب، أليس هذا احتراما للإسلام؟ ومن مصلحته كما يقول العاصي؟ أليس هذه هي الديمقراطية؟ فما بالكم تكذبون؟" ¹⁹.

بأسلوب التقريع هذا يستهجن البشير الإبراهيمي ويحتقر ممارسات المستعمر، بوصفه شرًا مستطيرا، ووبالا خطيرا، يقول: "أليس في صنيع المستعمر الديمقراطية الكاملة التي يؤمن بها، فإنه احتراما للإسلام، يساوي بين عمل مُعلّم القرآن، ومرتكب الجرائم ويجعله في صف واحد معه، صفة ومحاكمة ومأوى، ويتم ذلك في أحد الأيام المشهودة عند المسلمين، وهو يوم الجمعة، أليس هذا احتفاء بالإسلام، وتجسيدها للديمقراطية؟ فما للجاحدين ينكرون هذا الفضل؟ ويكذبون هذا الإجراء" ²⁰، وليس بمستكثر ولا مستغرب على البشير الإبراهيمي المصلح المرابي والمعلم النابه، الخبير بعوامل البناء والإحياء والتغيير أن يُشخّص الداء، ويرصد الاختلالات، ويصف الدّواء، ويقدم الحلول للأزمات والمعضلات التي تقف حجر عثرة أمام حركة المجتمعات والشعوب وسيورتها وتطورها، فيذهب إلى كشف مذهب الاستعمار في إشاعة الفساد والجهل ونشر التخلف والوهن، بقوله: "أليس معنى مقاومة التعليم نشر الأمية وتكاثر الأميين؟ ألا يقتضي المنطق إلا هذا؟ لأن له مذهبا في المحافظة على الأمية لئلا تزول، كمذهب العلماء في المحافظة على الحيّات السّامة لئلا ينقطع نسلها.." ²¹، ويمضي الإبراهيمي على هذا النحو من أسلوب التقريع والزّجر والرّدع، مُصوّرا الوجه الكالج القبيح للمستعمر، كاشفا زيفه وعسفه وعدوانه على الأمم المستضعفة الآمنة، استجابة لنزعاته العدائية، وطبائعه التي تستحثه على السوء والظلم والقهر، والإمعان في إراقة الدماء، إشباعا لنزواته وأطماعه، وإرضاء لغرائزه في حُبّ الاستعباد والاستبداد كما في قوله: "ولو أنّ طفلا منهم خرج من غاره ودخل مدرسة عربية لجاأت الحكومة تسعى وهي تخشى أن يصيبه سوءٌ من عدم المحافظة على الصحة" ²²، وظلّ البشير الإبراهيمي على نهجه التربوي الذي أسّسه على منهج قوامه التّوعية والصّحوة واليقظة، في سبيل تجسيد مشروعه النهضوي الذي يستهدف انتشار الإنسان من برائن الجهل وسرديب الغفلة، ودهاليز الضعف والهوان، مستنهضا بهم، شاحذا العزائم،

موقظا الضمائر، رافضا سياسة التّدجين والتّهجين والاحتواء والإغراء، حاملا على الخونة والعملاء من أبناء جلدتنا الذين جنوا على الدين والوطن، يقول: "إن الأقوياء الذين تولوا أمر التّقسيم، وحملوا أولئك الضعفاء بالوعد والوعيد على التّصويت عليه ما ارتكبوا تلك الجريمة الشنعاء وعمطوا حقّ العرب، إلا بعد أن غمزوا مواقع الإحساس من العرب، فأروهم جادّين كالهازلين ورأوا منهم ناكثين كالغازلين، ورأوا في أمرائهم المقاومين على أعنف ما تكون المقاومة، والمساومين على أخسّ ما تكون المساومة، وفي شعوبهم الجاهل والذّاهل، والمتشدّد والمتساهل، فبنوا مقدّمات الحكم على هذا التفاوت في الكيان العربي، وغرّهم بالعرب الغرور، ولم يتبعوا الأيام نظرهم، بل وقعت عينهم على يوم العرب وأغفلوا غدهم"²³.

7. تشخيص العلل وتقويم الخلل:

وهنا يشير البشير الإبراهيمي إلى حقيقة لطالما خفيت على كثير من رجالات عصره، وهي أن الأقوياء ما كانوا ليكونوا أقوياء؛ لولم نكن نحن ضعافا، وحين أدركوا ضعفنا، أمعنوا في إذلالنا، فصادروا حقوقنا، وسلبونا حريتنا، وعاملونا معاملة السيّد للعبد، والقويّ للضعيف، وحكموا علينا بأن نعيش نُعساء عاجزين متخلفين تابعين لا متبوعين، وخادمين لا مخدومين، ومثل هذه الأمراض هي التي فتكت بالجسد العربي وأنهكته؛ واستنزفت قواه وأحالتة جثة هامدة، لا عقل فيها ولا روح، لأن العدو تمكّن منا، وزرع فينا وبيننا بذور الشّقاء والفناء، مشيرا إلى ما أصابنا جراء ذلك من نكبات، وحلّ بنا من نكسات وأرزاء، يقول: "هم فعلوا الفعلة النكراء، فوازنوا بين ما نملك من قوى مادية نستطيع بها الممادة في الجهاد، وبين ما يملك الصّهيونيون من ذلك، ودرسوا وقارنوا واستخدموا الجمع والطرح والضرب، فأنتجت لهم المقدمات هذه الحقائق، وهي أنّنا لا نملك مصنعا للسّلاح، ولا معملا للكيمياء ولا رجالا فنيين كالذي يملكه اليهود من كلّ ذلك، وأنّ ثلاثين سنة مرّت - وكلها نذر هذه العاقبة- لم توقظنا من غفلتنا، ولم تدفعنا للاستعداد لها، فقالوا: نقسمها ونريح اليهود، لأنّ لنا فيهم فائدة مُعجّلة، ولا نخشى العرب، لأنّ ليس فيهم مضرة مُوجّلة"²⁴، ويُخصّ لنا أسباب مأساة المسلمين وهوانهم على عدوّهم وضياعهم، حتى باتوا كالأيتام على مادبة اللّثام، ويرى أنّ معاناتهم إنّما مرجعها إلى تخلّيمهم عن الإسلام الذي أعزّهم الله به، وتحللهم من مبادئه السّميحة، وقيمه السّامية، ومن ثمّ فلا سبيل إلى نجاتهم وخلصهم من الشرور المحدقة بهم، والأزمات والمحن التي تنخرهم إلا بالتّمسك بهديه يقول: "ما أضع المسلمين ومزّق جامعتهم، ونزل بهم إلى هذا الدرك من الهوان إلا بُعدهم عن هداية القرآن وجعلهم إياه عضين، وعدم تحكيمه له في أهواء النفوس ليكفكف فيها، وفي مزالق الآراء ليأخذ بيدهم إلى صوابها وفي نواجم الفتن ليحلي عماءها، وفي معتك الشّهوات ليكسر شهوتها، وفي مفارق سبل الحياة لهدي إلى أقومها، وفي أسواق المصالح والمفاسد ليميز هذه من تلك، وفي مجامع العقائد ليميّز حقّها من باطلها"²⁵، ليؤكّد أنّ الغاية القصوى للمسلم أن يكون حمّالا للرّسالة العظمى، قوّاما بحدودها، حريصا كل الحرص على النهوض بها وأدائها، معتدا بمقتضياتها وتبعاتها، بقوله: "إنّ الغاية في هذا الوجود، سيادة في الحقّ وسيادة بالحقّ، وأن لا سبيل إليهما إلا بالعلم والعمل وأن عمران الأرض متوقّف على عمران العقول والنفوس"²⁶، وإنّ بعث هذه الأمة، ورفعها وسؤدها، لا يتحقق إلا إذا أخذت بزمام الدّين، واهتدت بهديه، واسترشدت بأنواره، واستظلتّ بظله ولا يمكن أن تقوم لها قائمة، ويقر لها قرار، ما لم تقتد بسلفها الصالح من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يقول: "إنّ الأُمَّة الإسلاميّة التي يقرأ النَّاسُ أخبارها في التّاريخ فيقرؤون المدهش المعجب، ويرى النَّاسُ آثارها في العلم والتّشريع والأدب والحكمة، فيرون الطّراز العالي الباذخ فيستوي المُحب والمُبغض في الاعتراف بأنّ أُمَّة هذه أخبارها وهي آثارها، لبي الأُمَّة حق الأُمَّة، إن تلك الأُمَّة ما كانت أُمَّة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقرآن"²⁷.

وقد أولى البشير الإبراهيمي في خطابه وكتاباتة، وفي كل نشاطه الإصلاحي والتعليقي، التّربية أهمية كبرى بوصفها عماد كلّ إصلاح، وركن كلّ بناء، والحصن الذي تلوذ به الأُمَّة عند هبوب العواصف الجائحة فيعصمها من السقوط والهزائم لأنّ التّربية في نظره تهذيب للطبائع، وصقل للعقول وضبط للسلوك والنّوازع وارتقاء بالأذواق وتسديد للنّظر، وتقويم للنفوس

والعواطف، لبناء الشخصية السوية المتزنة وإعداد الإنسان الصالح القادر على النهوض بواجباته، وتحمل مسؤولياته، وأداء دوره في الحياة، يقول في هذا الشأن: "للجيل الآتي علينا حقوق أولية مؤكدة، لا تبرأ ذمتنا منها عند الله... إلا إذا أدبناها كاملة غير مبخوسة.. وملاك هذه الحقوق أن نعددهم للحياة على غير الطريقة التي أعدنا بها أبائنا للحياة"²⁸، وعلى عاتق المعلمين تقع هذه المسؤولية وهي أمانة ثقيلة المحمل، تستلزم تضحيات وصبرا وعزما ومثابرة ومجاهدة للنفس وحزما وصدقا في القول والفعل، وإخلاصا في المسعى، حيث يقول: "أنتم حراس هذا الجيل، والمؤتمنون عليه، والقوامون على بنائه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية... ربوهم على استخدام المواهب الفطرية، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة"²⁹، أما المدرسة فلا بد أن تواكب الواقع المعيش، وتجاري روح العصر، بل هي الروح، والمجتمع هو الجسد، تصنع الحدث وتؤثر في الرأي العام، وتصنعه وتوجهه الوجهة الصحيحة، وتصنع حاضر الأمة وتحيي ماضيها المجيد، وتجده وتستشرف مستقبلها، إنها مصنع العقول الواعية والذمم الراعية والهمم الساعية، يقول: "المدرسة التي تقدم تعليما عصريا يسائر العصر وقوته ونظامه، تعليما عليه طابع الأمة وفيه أثر جهودها، وله مالها من روح وعليه ما عليها من سمات"³⁰، ومن ثم فليس أمام الجزائريين الذين ذاقوا كل ألوان العسف والهوان وأبشع صنوف الاستغلال والإرهاب من الاستعمار، إلا أن يأخذوا بأسباب البقاء والمجد ليعيشوا أعزة، أو يموتوا كراما، يقول: "إن الشعب الجزائري قد أصبح من طول ما جرب ومارس في حالة يأس من العدالة وكفر بالديمقراطية التي يسمع عنها ولا يراها أصبح لا يؤمن إلا بأركان حياته الأربعة: ذاتيته الجزائرية، وجنسيته ولغته العربية ودينه الإسلامي، لا يستنزل عنها، ولا يبغى بها بديلا"³¹، وهذه الأركان هي مناط وجوده وسبب خلوده، المؤمنة لحدوده، المعبرة عن كيانه وهويته، لا تقبل المساومة، بل هي اختبار لنا على درب المقاومة على وجه المداومة .

8. موقع نظرية التربية من مشروعه الإصلاحي:

لعل إدراكه لأثر التربية في تنشئة الأجيال وتأليف الرجال، ودرء المفسد، وعلاج الاختلال ومحاربة الاحتلال ورفض ضروب الاستغلال وألوان الاعتلال، هي التي حملته على تقديم التربية على التعليم، باعتبار أن التربية غاية والتعليم وسيلة، وهو ما ينبغي أن يتجسد في المناهج التعليمية، لأن أساليب وطرائق التعليم الفعالة، هي التي تراعي علاقة المتعلم بمحتوى المناهج والبرامج، بعيدا عن التلقين والحشو والاستكثار من المحفوظ، كما تحرص على توجيه الإنسان وتوعيته، وتنمية مواهبه وصقل طباعه، لأن غاية التربية بناء الفرد الصالح وتحصينه من المفسد والآفات وغاية العلم تثقيفه وتوعيته، يقول: "أحرصوا على أن تكون التربية قبل التعلم واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، وهي أن الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته من نقص العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص الأخلاق"³²، ومن ثم كان حرصه كبيرا، واهتمامه جليا بهذا الجانب، بالنظر إلى أثره العظيم في تكوين الإنسان القوي الفعال والإيجابي، ودوره في صياغة العقول والارتقاء بالنفوس، مع مراعاة مبدأ التدرج في إشباع هذه العقول والنفوس بالغذاء الروحي الذي تحتاجه، مثلما تحتاج أبدانهم إلى الغذاء المادي، كي تقوى على الحركة وتحافظ على أسباب الحياة، فاللروح غذاء، وللنفوس غذاء، وللعقول غذاء وغذاؤها هو التربية القويمة والعلم النافع، والثقافة الراشدة، وهي أسس كل إصلاح وصلاح ونجاح وفلاح، يقول: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في المدينة المنورة في تربية النشء، هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل"³³، لذلك انصبت جهوده العلمية والإصلاحية والفكرية على ضرورة تخير المناهج التي تنسجم مع هذه الغاية الكبرى، وتكيف البرامج مع ما يحقق هذا المشروع ويترجمه على أرض الواقع، لأن العبرة بالكيف لا بالكم، فإذا صحت الأفكار والمعارف، وصحت المناهج والبرامج التعليمية، كان لذلك أثره العميق في وجدان المتعلم وسلوكه، وتفتق مواهبه واتساع مداركه، وكان له شأن في الفهم والتفسير والتعليل والاكتشاف، وهذا ما أشار إليه بقوله: "إنماء الفكر وتربية ملكة التعليل والتدريب على الاستنباط وبناء الأمور على أسبابها والنتائج على مقدماتها"³⁴، وهذه المهمة موكولة إلى العلماء العاملين المجاهدين

والمختصين، وأصحاب الدربة والدراية والخبرة، من رجالات الإصلاح والتربية، لأنهم بناء المكارم والمعالي وصناع الحضارة، يجددون للأمة دينها، ويحيون مآثرها، ويوطدون لها مقومات حياتها، أما التعليم الذي أرادته فرنسا للجزائريين وفرضته عليهم، فأضراره أكثر من منافعه إذا كانت له منافع، لأنه تعليم مدسوس، يبرر للظلم والعدوان، ويطمس المعالم، ويفسد اللسان والمكارم، ويسوغ لانتهاك المحارم، وهو إلى ذلك تعليمٌ يُغرَّر ولا يُحرَّر، ويُدمَّر ولا يُعمَّر، ويقطع ولا يصل، ويفسد ولا يصلح، ويشيع الآفات ويورثُ الخلافات والانحرافات، يقول: "والتعليم الأجنبي على تفاهته في الكيف وقلته في الكم، وعلى اضطرابنا إليه وإقبالنا عليه، يسبقه جهلٌ وتقترن به آفاتٌ، وتعقبه مفسادٌ، وهو على ذلك كله يفتح عيننا ليعمي عيننا، ومن بلغ إلى غايته منا أصبح بالطبيعة متنكرا لماضيه ودمه وقومه، لأن ذلك التعليم وجدده فارغا فمأله بما يشاء لا بما نشاء نحن.."³⁵، فالتعليم الذي تبغيه الأمة لنفسها وترتضيه لأجيالها هو التعليم العربي الذي يعبر عن هويتهم، ويعكس شخصيتهم ويستوعب حاضرهم ويعزز صلتهم بماضهم ويدفعهم إلى التفاعل مع معطيات عصرهم وتجاربه ومستجداته، بما يعزز وجودهم وكيانهم، وهو ما أشار إليه بقوله: "الأمة تريد تعليما عربيا يساير العصر وقوته ونظامه، لا تعليما يحمل جرائم الفناء وتحمله نذر الموت"³⁶.

ولعلَّ قوام هذا التعليم المنشود، يتلخص في نوعية مقاصده وأهدافه، فلا بد أن تكون مضامينه عربية، يخدم الأمة ويلبي حاجتها، ويرعى مصالحها، ويعزز لغتها ودينها ويشعرها بالاعتزاز بمآثرها ومفاخرها، وتاريخها وثقافتها وأدائها، دون شعور بالنقص ولا انهيار وتقليد وتبعية للأجنبي، يكرس شعار: الجزائر وطننا والعربية لغتنا والإسلام ديننا، وهذا هو الدور الذي ينبغي أن يضطلع به المعلم ويؤديه، من خلال "تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا"³⁷، والدفاع عن هوية الأمة بعروبيتها وإسلامها، و"إحياء مجد اللغة العربية وأدائها وتاريخها"³⁸، و"تذكير المسلمين بحقائق دينهم وسير أعلامهم وأمجاد تاريخهم"³⁹، وكذا "إنشاء جيل قرآني يتقن حفظ القرآن، ويحسن فهمه والعمل به"⁴⁰، فالتعليم مشروع ضخم وحيوي، من أولوياته بناء الرجال وتعريف الأجيال بحقائق دينها ولغتها وتاريخها، والانفتاح على علوم العصر والأخذ بأسباب التجدد والتطور والتقدم والانصراف عن عوامل التبدد والاضمحلال والتلاشي، وفي هذا السياق أكد "البشير الإبراهيمي" على ضرورة إعطاء المعلم المكانة اللائقة به، بوصفه حاملا لرسالة سامية هي رسالة الأنبياء في التنوير والتحرير والتوجيه والهدى، وهو الحصن الحصين والركن الركين الذي تقوم عليه نهضة الأمة، فيعلو بناؤها، ويشد عودها، وتقوى شوكتها، وهبابُ جانيتها، وترسو دعائمها، يقول: "إن كثيرا منكم- المعلمين- في حاجة إلى الاستزادة من التحصيل...فاعرفوا كيف تدخلون من باب التعليم إلى العلم، ومن مدخل القراءة إلى الفهم، وتوسعوا في المطالعة يتسع الاطلاع."⁴¹، ولا يغفل الطرف الثاني في معادلة التعلم، ويخصها بفصول تنبئ عن معرفته باستراتيجية التعلم والتعليم، ومعرفته بخواص الناشئة وحاجتهم إلى التكوين والتدريب والتأهيل الذي يتفق مع عقولهم وينسجم مع نفوسهم وطباعهم، فلا يثقل عليهم ولا يكون سببا في نفورهم وعزوفهم عن التحصيل والقابلية للتهذيب والتعبئة، وراح يصف لنا الأسلوب الفعال في التعامل مع المتعلمين، بما يحقق الغايات الكبرى التي تستجيب لتطلعات الأمة، من خلال تأليف أجيال متحفزة متوثبة، واعية مثقفة، لهم همم عالية وعزائم متقدة، وإرادات حديدية لا تلين ولا تنكسر ورغبات جامحة في مجال التميز والعطاء، وميدان البذل والسبق والتفوق والارتقاء يقول: "إن من الطباع اللازمة للأطفال أنهم يحبون من يتحبه إليهم، ويميلون على من يحسن إليهم، ويأمنون بمن يعاملهم بالرفق، فواجب المربي الحاذق إذا أراد أن يصل إلى نفوسهم من أقرب طريق أن يتحبه إليهم، ويقابلهم بوجه متهلل، ويظهر لهم من الحنان والعطف ما يحملهم على محبته، فإذا أحبوه أطاعوه، وإذا أطاعوه وصل إلى توجيهم إلى ما يريد، فإذا ملك نفوسهم، حبب إليهم المدرسة والقراءة والعلوم"⁴²، بل إن عملية التعلم لا يمكن أن يكتب لها النجاح، وتؤتي أكلها، وتُجنى ثمراتها إلا إذا كانت علاقة تحكمها روح الألفة والمودة والإنسانية والأخلاق الرفيعة التي تجعل المتعلم وديعة يجب صونها

ورعايتها والاهتمام بها، كي يكون نتاجها وفيرا، وخراجها جزيلا، وأثرها مشهودا، وعطاؤها ممدودا، يقول: "ليس المهم المادة العلمية التي يفرضها البرنامج والكتب، إنما المهم هو ما تفيض به نفوس المعلمين على نفوس تلاميذهم من أخلاق طاهرة قيومية، يحتذونهم فيها ويقتبسونها منهم، وما يبثونه في أرواحهم من قوة وعزم فلو كانت البرامج تكفي في التربية، لكان كل عالم مربيا"⁴³، وشتان بين من يمتلك المعارف النظرية والمعلومات العرضية، ومن يحسن تحويلها إلى أرضية، تنتج أثرا، وتولد طاقة وتحبي روحا، وتورث قوة، ولاشك أن استنهاض الأمة من كبوتها وإحيائها وبعثها من سباتها إنما يتطلب دراسة شاملة واعية وعميقة، تنصرف إلى ماضيها فتقرأه، وتفتح على حاضرها فتفهمه وتلتفت إلى مقوماتها وغاياتها، فتتعاطى معها بإيجابية وتتفاعل مع مستجدات العصر وحوادثه بتبصروعي. يقول: "من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما تدرس الحقائق، فإذا استقام له ذلك استقام العمل وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له، فإذا تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهاتها ولا معرفة بدرجة استعدادها، كان حظها الفشل"⁴⁴.

ولعل العقل الواعي والضمير الحي والتربية الصحيحة، هي الأدوات التي تحرر الأبدان، فلا يمكن تصور إنسان متحرر لا يحمل عقلا مفكرا، ونظرة ثاقبة ورؤية نافذة وإدراكا واسعا، يقول: "إن تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان وأصل له ومحال أن يتحرر بدن يحمل عقلا عبدا"⁴⁵، وظل ينافح عن لغة الضاد، مبينا عبقرية هذه اللغة، كاشفا أسرارها وكنوزها ونفائسها وقدرتها على مجازاة روح العصر، والتعبير عن علومه واستيعاب منجزات الحضارة الحديثة، إذ لا يمكن لأمة أن تحقق نهضة ما بغير لسانها، يقول: "ابحثوا ونقبوا واحدوا ركامها، واطربوا واسمعوا لبيان فضلها سعيكم لتعليمها، واشربوا قلوب أولاد هذه الأمة: أنه ما غرد بلبل بغير حنجرته"⁴⁶، لأن فكرة الانبعاث واليقظة والتجدد لا تتحقق إلا بالاستقلالية والتحرر من التبعية اللغوية والثقافية وتعمق تراثنا وتجديده، ونفض غبار الإهمال والنسيان عنه، وتصفيته مما علق به من شوائب، بالاختيار والتمييز والنقد البناء بشجاعة وثبت ووعي وورصانة، من غير تردد ولا تخبط وربكة، ونبد كل ما من شأنه أن يحجب عنا حقائق تراثنا ونصاعة صفحاته، ويحول دون استثمار عناصر القوة فيه، ومن دون ذلك لا نستطيع أن ننتشل أنفسنا من أحوال الجهل ومستنقع التخلف والتبعية للأجنبي الذي يترصب بنا الدوائر، لإبقائنا في حالة ضعف وهوان واستعباد يقول: "نظرت في جميع ما لدينا من تراث الأوائل مما نسميه علما وأمعت في تتبع أطوار العلوم الإسلامية من النقطة التي وصل إليها صدها في الاتساع إلى المنشأ الأصلي فوجدت أن جميع علومنا الإسلامية في جميع أدوارها يعوزها الاختيار والنقد يعوزها الاستقلال في الرأي، تعوزها الشجاعة إلى أن جاءت عصور الانحطاط، فكان ذلك الإعواز بذرة فاسدة للتقليد في جميع علومنا حتى أصبحت أشباحا بلا أرواح، فلا عجب إذا أكبرت الرجل وأكبرت كل من يوفق إلى غرس هذه الملكة فيه في نفسه"⁴⁷، وما كان لأمة أن تسود وتقود وتنتصر، لولا علو الهمة وصدق العزم، والأخذ بأسباب النماء والنمو والتفوق والغلبة، فلا ملك إلا مع العدل، ولا صلاح إلا مع التربية، ولا نفع مالم إلا بحسن استثماره، ولا فائدة من الوقت إلا بحسن استغلاله، يقول: "دفع الأبطال إلى الفتح، وجعل الرفق رديفه ودفع أولى الهمم إلى الملك، وجعل العدل حليفه، ودفع العلماء إلى التربية، وجعل الإسلام غايتها ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر، وجعل عزة الأمة نهايتها، فسد كل واحد ثغرة وأبقى فيها آثار الخوالد... أبقى الأبطال تلك الفتوحات التي هي مفاتيح ملك الإسلام، وأبقى الخلفاء تلك السير التي هي جمال الأيام، وأبقى العلماء تلك الأسفار الكريمة التي هي عطر التاريخ وأزهاره، وأبقى الأغنياء هذه المعامل الباذخة التي هي بيوت الله"⁴⁸، وغاية ما يُطلب من العلم أن يكون نبراسا ينير دروب الحياة، ويعين على مشاقها ومشاغليها، ويذلل مصاعبها ويعزز قدرات الفرد والمجتمع في التملك والكسب، بما يحقق النفع للإنسان، ويعمر الأرض، ويحمي الأوطان، ولا يتأتى ذلك إلا بالعلم المبني على الفهم والإدراك والوعي، والاستدلال والتعليل والتحليل وإعمال الفكر والاستنباط، لا العلم الذي يؤسس على القشور والحفظ والتقليد، يقول: "فالغرة اللامعة في جبين هذه النهضة العلمية هي اقتزان العلم بدليله فأصبح علماؤنا يعملون بالدليل ويدعون إلى الدليل ويطالبون بالدليل، ويحكمون بالدليل ولو في أنفسهم"⁴⁹، ويبقى شعار الأمم الحية الحرة هو العلم

بوصفه أداة لتحقيق التنمية وجلب الرفاه والرخاء والاستقرار والقوة والتطور، وتلبية حاجاتها ومطالبها في العيش الكريم بالتوازي مع التربية الصحيحة والأخلاق الكريمة التي هي غذاء للروح والنفس، وهو ما أشار إليه بقوله: "العلم وحده مهما تشعبت أغصانه، وتفرعت أفنانه، وأسلس عصبه، حتى فتحت مغلفات الكون، لم ولن يغني عنها فتيلًا، مما تغني الأخلاق والفضائل.."⁵⁰.

9. خاتمة:

إن المعرفة والعلم بلا أخلاق وتربية كالشجرة بلا أوراق، لا ظل لها ولا نضارة، ولا جمالا ولا ثمارا، ولا سبيل إلى أخلقة الحياة العلمية في المدرسة إلا بتخريج معلمين وأساتذة ومربين أكفاء قد استوفوا حظهم من التربية والتكوين الرصين، قادرين على غرس الفضائل والأخلاق والقيم والمثل العليا في نفوس المتعلمين، قبل تزويدهم بكم المعارف النظرية والعلوم التجريبية، ومن ثم لا يمكن لأي مجتمع أن يحقق مشروعا نهضويا، مالم يهتم ببناء الإنسان، ويركز على تغيير سلوكه وطباعه وأفكاره، من خلال تربية مدنية وأخلاقية واجتماعية، من شأنها بناء الإنسان بناء سليما متكاملا ومتوازنا في تفكيره وتديبره، وفي منهجه وسلوكه، وفي أعماله وأفعاله، على أساس أن التربية هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة.

10. الهوامش :

- 1- عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1983، ص 136.
- 2- عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث، 1830-1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، 1983، ص 31.
- 3- محمد مهداوي: البشير الإبراهيمي والعربية، كلية الشعب، جامعة بغداد، 1983، ص 128-129.
- 4- أحمد بن ذياب: روائع البيان في خطب الإمام الإبراهيمي، مجلة الثقافة، ع 87، ص 22.
- 5- المرجع نفسه: ص 117.
- 6- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 5، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981، ص 288.
- 7- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981، ص 482.
- 8- المصدر نفسه: ص 78.
- 9- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 4، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981، ص 87.
- 10- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 3، ص 422.
- 11- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 4، ص 80.
- 12- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 3، ص 425.
- 13- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 4، ص 328.
- 14- المصدر نفسه: ص 219.
- 15- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 3، ص 29.
- 16- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 4، ص 228.
- 17- المصدر نفسه: ص 299-300.
- 18- عبد المالك مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، ديوان المطبوعات الجامعية د ط، الجزائر، 1983، ص 49.
- 19- محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص 430.
- 20- المرجع نفسه: ص 371.
- 21- المرجع نفسه: ص 376.
- 22- المرجع نفسه: ص 377.
- 23- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج 3، ص 69.
- 24- محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 493.
- 25- محمد الصالح الصديق: الإمام الإبراهيمي وفهم القرآن، مجلة الوعي، العدد 2، ص 49.
- 26- المرجع نفسه: ص 50.

- 27- المرجع نفسه: ص 52.
- 28- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج3، ص 272.
- 29- المصدر نفسه: ص 272.
- 30- المصدر نفسه: ص 283.
- 31- المصدر نفسه: ص 92.
- 32- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج5، ص 280.
- 33- المصدر نفسه: ص 280.
- 34- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج3، ص 272.
- 35- المصدر نفسه: ص 275.
- 36- المصدر نفسه: ص 283.
- 37- المصدر نفسه: ص 56.
- 38- المصدر نفسه: ص 56.
- 39- المصدر نفسه: ص 56.
- 40- المصدر نفسه: ص 204.
- 41- المصدر نفسه: ص 268.
- 42- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981، ص 260.
- 43- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج3، ص 269.
- 44- المصدر نفسه: ص 270.
- 45- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج4، ص 271.
- 46- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981، ص 211.
- 47- المصدر نفسه: ص 47.
- 48- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج3، ص 137-138.
- 49- محمد البشير الإبراهيمي: آثاره، ج2، ص 111.
- 50- المصدر نفسه: ص 112.

11. المراجع :

- 1- الإبراهيمي، محمد البشير، (1981)، محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 2- الإبراهيمي، محمد البشير، (د.ت)، عيون البصائر، القاهرة، مصر، دار المعارف.
- 3- مهداوي، محمد، (1983)، البشير الإبراهيمي والعربية، جامعة بغداد، كلية الشعب.
- 4- مرتاض، عبد المالك، (1983)، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 5- مرتاض، عبد المالك، (1983) فنون النثر الأدبي في الجزائر، 1931-1954، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 6- ركيبي، عبد الله، (1983)، تطور النثر الجزائري الحديث، 1970-1983، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 7- بن ذياب، أحمد، (د.ت)، روائع البيان في خطب الإمام الإبراهيمي، مجلة الثقافة، ع 87.